## (١٦) هنرى جيمس : السفراء

### بقلم : ليون إيديل

كتب هنرى جيمس رواية «السفراء» بين منتصف عام ١٩٠٠ والأشهر الأولى من عام ١٩٠١ على الرغم من أنها لم تنشر إلا فى عام ١٩٠٣ . كانت افتتاحاً للرواية الجديدة فى القرن الجديد .

وإذا ما ألقينا بنظرة إلى ذلك الماضى فسندرك أهميتها كرواية تجريبية ؛ إذ إنها أحدثت ابتكارات عدة فى فن السرد القصصى : فقد سبقت الرواية التأملية التى كتبها بروست ، واستخدمت الأسلوب الذى تتبعه الدراما فى تتابع المناظر ، وفرضت ظلها على أسلوب التصوير السينمائى الذى ابتدعه روب – جرييه ، وفتحت الطريق للمونولوج الداخلى الذى نراه عند جويس وفرجينيا وولف وفوكنر .

وبحكم أنها تخضع تماما لوعى الروائى ومقاييسه المتعمدة ، وبنائه المحكم – فإنها تعد مغامرة للروح أكثر منها قصة تسرد مغامرة للجسد : فالشخصية العنيفة الفريدة فى الرواية هى شخصية السيدة العنيدة فى رأيها والقادمة من المدينة الأمريكية الإقليمية بمزاجها الحاد وعقلها المنغلق ! إنها قصة السلوك الحضارى والمجتمع المتحضر ، قصة يتم سردها بمهارة فنية ملحوظة ومدركة لكل أسرار حرفتها .

وقد لاحظ أندريه جيد منذ أمد بعيد أن هنرى جيمس «يدع فقط البخار المناسب لكى يتسرب حتى يحافظ على كفاية آلته من صفحة إلى أخرى ، ولا أعتقد – (يقول جيد) – أن ذلك

الاقتصاد والوقار قد شهدهما الأدب من قبل بهذه الحنكة والحكمة ! وكان جيمس نفسه مدركاً لهذا الوعى المتعمد : فقد كتب إلى دوقة إنجليزية محبة للأدب وذلك بعد أن وجدت صعوبة فى قراءة هذه الرواية ، قال لها :

« أرجوك أن تأخذى « السفراء » ببساطة وبخفة : اقرئى فى اليوم بمعدل خمس صفحات ، وتعمدى ذلك عن قصد ، لكن إياك أن يفلت من يدك الخيط الرئيس ؛ فهذا الخيط ممتد فعلاً بإحكام قائم على المنهج العلمى . فلْتسيرى بحذائه خطوة خطوة ، عندئذ سيكشف لك السحر كله عن نفسه » .

هذا السحر لا يكمن فقط فى كوميديا جيمس الإنسانية ؛ إنه يسرى أيضاً فى بناء أو شكل الكتاب ، فى خطوطه المتناسقة ومناظره المرسومة بحساب ، كما فى أسلوبه الخصب الفعال . هناك آلاف الكتّاب فى كل جيل ، لكن الذين يخلدون منهم فقط هم الذين يقولون أشياء لا تنسى بأسلوب لا ينسى ! وكان أسلوب جيمس الذى بلغه بعد سنوات كثيرة متشابكاً صعباً ، لكنه كان مميزاً ولا يمكن أن ينسى ! كان مصمماً بحيث يلتقط العناصر المرهفة والأصيلة النابعة من فكر رجل يعشق التأمل . ولكى تتحقق الأصالة فلا بد من استخدام اللغة بأصالة وحنكة . ويجب علينا أن نألف أسلوب جيمس كقراء تعلموا كيف يقرءون جمل بروست التى تتدفق كالنهر ، وتمكنوا من حيل جويس الأسلوبية .

ودائما ما نظر جيمس إلى الأسلوب كجواز مرور الكاتب إلى الأجيال المستقبلة . ومن المؤكد أن أسلوبه الخاص تزايد فى رصانته وزخرفه ؛ وهناك أوقات يتطرف فيها إلى أسلوب الباروك أو أسلوب الزخارف والمحسنات اللفظية والبديعية : فنجد استعاراته المسهبة وتشبيهاته الشاملة تحتوى على كثير من الزخارف والمحسنات . وهذه المشكلة هى الأولى غالباً فى مواجهتها لقراء « السفراء » فلابد أن يعودوا أنفسهم دقة جيمس فى استخدامه للغة ؛ مما يستدعى تركيز انتباههم تماماً .

ولعل الجملة الافتتاحية تشرح هذه الصعوبة : «كان أول سؤال لستريذر عندما بلغ الفندق عن صديقه ، لكنه عندما علم أن من الواضح أن وايمارش لن يصل قبل المساء لم يصبه الاضطراب إطلاقاً » : بعد هذه الجملة « لم يصبه الاضطراب إطلاقا » نكتشف أن ستريذر « لم يندفع إطلاقاً لكى يقع فى براثن الرغبة » إن استخدام أسلوب النفى بهذا التكرار يبدو لأول وهلة وكأنه لازمات أسلوبية مقصودة ، ولكن سرعان ما ندرك أن لها هدفاً واضحاً . كان فى

استطاعة جيمس القول بأن ستريذر « لم يضطرب كلية » أو أنه « لم يشعر بحرج » .

وعلى أية حال يجب علينا أن نسمح للكاتب باستخدام لغته بالطريقة التى يراها مناسبة ، ويجب علينا ألا نجد لها بديلا من السخافات والتفاهات التى نفرضها على أسلوبه فى سرد الأشياء.وما يتأتى لنا إدراكه أنه منذ البداية يحاول جيمس أن يضعنا فى أنسب وضع نفكر فيه أو نرى منه شخصيته الرئيسة فيبدو ستريذر نوعاً مترددا من الرجال ، يفكر ويعبر عن نفسه مستخدماً النفى .

تلك إذن هى طريقة جيمس فى منح اللغة وظيفتها الوصفية فى حالة عدم قيامه بالوصف فعلا . فنحن ندرك أن ستريذر لايكابد من الأحاسيس ما هو حاد وإيجابى جداً .

وبالإضافة إلى ذلك فإننا فى هذه المرحلة لا نعرف شيئاً عن ستريذر ؛ لأن أحداً لم يخبرنا عنه بشىء ! لقد وُصل ببساطة إلى فندقه ونراه وهو يتصرف أمامنا كاشفاً عن ذاته ؛ فهو يستفسر عن صديقه أو معرفته وايمارش . وفى الحال نكتشف أن جيمس يسرد لنا قصته بأسلوب يمكن أن نسميه أسلوباً « حديثاً » جداً .

إنه حديث لأنه لا يشبه الروائيين القدامى : فعلى النقيض من ديكنز أو ثاكرى لم يلجأ جيمس إلى أساليب السرد القديمة والتى لا تساير روح العصر. فهو لا يخبرنا بكل شىء نحن فى حاجة إلى معرفته ، ولا يقدم لنا معلومات كاملة عن ملامح الوجه والشخصيات والدوافع والأهداف . إننا نكتشف شذرات طفيفة وأجزاء يسيرة من القصة ، لكن اللمحات التى نحصل عليها كثيرة . تلك هى الطريقة التى نكتشف بها الأشياء فى الحياة على وجه التأكيد .

وأسلوب جيمس فى السرد أسلوب يعتمد على المرئيات إلى حد كبير . وقبل عصر الكاميرا يبدو أنه كان مدركاً لوجود العدسات ؛ فهو يتحرك ويتنقل من اللقطة المقربة الكبيرة إلى اللقطة البعيدة ، ولا يمنحنا أكثر من المعلومات التى يعرفها ستريذر نفسه . إنها طريقة مثيرة لسرد القصة ؛ لأنها تمنع المعلومات عن القارئ بدلا من تدفقها عليه وأحياناً تمنعها كلية .

والمثال الملحوظ فى هذه الرواية يكمن فى السؤال عما تصنعه أسرة نيوسام فى مصنعها فى مدينة ووليت بولاية ماساتشوستس . فإن ثروة الأسرة قائمة عليها . إنها أداة من الأدوات المنزلية العادية كما يذكرها ستريذر فى مرحلة مبكرة فى الكتاب ، لكنه لا يقول ما هى بالضبط ؟ هل هى أمشاط ؟ ساعات ؟ دبابيس للشعر ؟ إن إ . م . فورستر يعتقد أنها ربما تكون مشابك للعراوى فيقول : « إنك إذا اخترت أن تكون متهوراً جريئاً وأن تتخيلها لنفسك فإنك تستطيع

أن تقول : إنها مشابك للعراوى ، لكنك تفعل هذا على مسئوليتك الخاصة ، فالمؤلف يظل بعيداً عن مثل هذه الظنون » .

وفى الواقع ليست هناك أية مسئولية ؛ لأن هذا موضوع لا يهم على الإطلاق . إن جيمس يمارس واحدة من حيله المفضلة التى تجعل القارئ يفكر فيما سوف يفعله . إن آل نيوسام أثرياء ولهم ابن يعيش متسكعاً فى باريس ، وهى دراما التسكع ودراما السفير فى الوقت نفسه ، لذلك من المهم إرسال ستريذر لإعادته إلى الوطن ، فلم تأت الثروة إليهم عن طريق الصدفة . وبمعنى أوسع فإن جيمس ربما يلمح إلى أنه عندما يقابل الإنسان أصحاب الثروات الضخمة فإنه لا يعرف دائماً من أى ينبوع يتدفق الذهب عليهم ! لقد كتبت « السفراء » فى العهد الذى بدأت فيه الثروات الأمريكية الضخمة فى التكوين ، وبحكم أن جده تمكن من جمع ثروة هائلة فى ولاية نيويورك فقد كان جيمس مهتما ليس بالطريقة التى تجمع بها الأموال ، ولكن فى كيفية استعمالها ، وفى تأثيرها على حياة الأفراد والأسرة .

وفى رواية مبكرة نجد بطل جيمس الأمريكى قد نجح فى تكوين ثروة من صناعة أحواض الغسيل ، ولا شك أن هناك أداة منزلية مشابهة قد قامت بخدمة آل نيوسام بالأسلوب نفسه ، إذن فهذه رواية حُذِف منها كثير من الأشياء المعتادة .

كان بحث جيمس دائماً عن كل ما هو جوهرى صميم . ولعل العنصر الجوهرى فى « السفراء » يتمثل فى إحساس التعاطف مع بطله لويس لامبرت ستريذر : فالسيدة ماريا جوسترى التى يقابلها ستريذر فى مدينة تشيستر تعلق على اسمه بقولها : إنه يذكرها رواية لبلزاك ويوافق ستريذر على هذا القول ، إذ إنه سمى على اسم لويس لامبرت ؛ ثم تعلق السيدة بقولها : إنها رواية سيئة ؛ فيوافقها ستريذر أيضاً لكن هناك ملاحظة هامشية وضعت فى نهاية الصفحة تقول : إن « لويس لامبرت » هى إحدى روايات بلزاك الفلسفية . وسترى أيضاً أن « السفراء » يمكن أن تسمى رواية فلسفية .

إن قراءة « السفراء » بادئ ذى بدء مسألة تعود على أسلوبها وإدراك لأصول صنعتها . وعندما ندرك أننا كقراء نقوم بجمع المعلومات مع ستريذر – أى أننا لسنا مجرد أشخاص تقدم إليهم كميات ضخمة من السرد القصصى فإننا نستطيع أن نتمكن من هذه الخيوط المحكمة ، وأن نتتبعها إلى قلب الكوميديا : فهى على السطح تبدو تافهة بما فيه الكفاية : فالسيدة نيوسام ، السيدة القوية المهيبة فى ووليت ( وهو اسم مدينة اخترعه جيمس ويمكن أن يكون

وورسستر أو والتام ) – هذه السيدة قررت إرسال صديقها لامبرت ستريذر الذى بلغ منتصف العمر إلى باريس ؛ ليعرف السبب الذى أدى بابنها تشاد لكى يمكث هناك تلك الفترة الطويلة ؛ فهى تريد أن يعود تشاد إلى وطنه ، لكى يشرف على أعمال الأسرة . ونظراً لصحتها الضعيفة إلى حد ما فقد مكثت فى ووليت كما لو كانت مكتباً أجنبيا أو وزارة للخارجية وستريذر هو « سفيرها » . ونحن لن نرى المسز نيوسام ؛ لأنها تملك كل سلطات المكتب الأجنبى التى لا تدرك عن قرب . إنها توجد ونشعر بها وتتصرف من خلال الرسل والبرقيات والأوامر والأوامر المضادة والعلاقات العامة . إنها تصدر التعليمات وتنفذ الخطط الاستراتيجية . فى مسرحية ساردو ذات الفصول الخمسة « عائلة بنواتون » لا تظهر مدام بنواتون على الإطلاق ، لكننا نعرف عنها أشياء كثيرة قبل أن تنتهى المسرحية . هكذا كانت المسز نيوسام خارج المسرح بصفة دائمة ، لكن قوتها تدفع بالدماء فى عروق « السفراء » .

ومثل كل الديبلوماسيين الكفاة فإن ستريذر يملك عقلا متفتحا . إنه سيجمع معلوماته أولا ، حينئذ فقط سيصل إلى النتائج . وكانت مدينة ووليت قد اتخذت قراراً فى هذا الشأن منذ مدة طويلة ، ويتمثل هذا القرار فى أنه لابد أن تكون امرأة فى مكان ما فى حياة تشادويك نيوسام الشاب . وكانت تلك هى نظرية المسز نيوسام : « ابحث عن المرأة ! » وعلى أية حال فإن ستريذر يحافظ على تفتح عقله . إنه ديبلوماسى حقيق وإن لم يكن محترفاً ، فهو يملك رهافة الحس والوعى ، وهو يدرك أن عليه أن يتمسك بأهداب التعقل والحكمة ؛ لأن تشاد نيوسام قد شب عن الطوق تماماً ؛ فليس هدف ستريذر أن يدس بأنفه فى حياته ، ربما يكون هذا هدف أمه ، لكنه لا يمكن أن يكون هدفه . إنه سيستخدم عينيه ببساطة ، وسيحتفظ بأذنيه مفتوحتين ، وسيبحث عن الدليل « السيكولوجى » وقد لاحظ جيمس فى إحدى رواياته التى كتبها من قبل أن هذا النوع من الدليل هو الوحيد الذى يحترم شرف الإنسان ، أما أى دليل آخر فيقول : إنه ينتمى إلى النمط البوليسى أو التلصص من ثقب المفتاح !

وكقصة فإن هذه الكوميديا المنطلقة تعد بسيطة نسبيا . لقد وجد ستريذر أن تشاد تغير كثيراً : فقد أصبح الشاب الريفى الوقح رجلا مهذباً يفهم العالم ويعرف كيف يعامله ! إنه يملك شقة مؤثثة بأسلوب جميل وذوق راق فى حى البوليفار مالشيرب ، وله مجموعة ساحرة من الأصدقاء سواء كانوا أمريكيين يعيشون بعيداً عن وطنهم أو فرنسيين . ويبدو وريثاً سعيداً لأمريكا الجديدة ، وهو يعيش فى رغد من العيش ملحوظ وبدون استعراض أو تفاخر فج بهذا .

وعندما ينظر ستريذر حوله باحثاً عن الذى صنع هذه المعجزة وخلص تشاد من كل صفاته المحلية الإقليمية الضيقة – يجد أن الشاب قد ترك قياده لتوجيه سيدة فرنسية راقية المحتد تدعى مدام دى فايونيه ، وهى نصف إنجليزية ونصف فرنسية وقد سبق لها أن انفصلت عن زوجها ، ولها ابنة شابة فى سن الزواج .

وكانت إحدى نظريات ستريذر الأولى أن مدام دى فايونيه ترغب فى تزويج ابنتها إلى تشاد ، ولكن سرعان ما يبرز العنصر الرئيس للتهكم فى القصة ؛ فإن السفير الذى أتى إلى باريس لكى يعود بتشاد إلى وطنه ينضم إلى صف تشاد نفسه ؛ فهو لم يسافر إلى الخارج منذ شبابه ، وفى منتصف عمره تتجدد حياته كلها تحت تأثير سحر « مدينة النور » ونحن بدورنا يمكننا أن ننضم أيضاً إلى شلة تشاد ! وبذلك لا يجرد ستريذر نفسه من هدف مهمته بسلوكه هذا فقط ؛ بل يصل أيضاً إلى النتيجة « الخطأ » إنه يؤمن أن من الضرورى لتشاد أن يستمر فى حياته فى الخارج ، لكن ذلك لم يكن النتيجة التى كان من المفروض أن يصل إليها !

وبالنظر إلى التناسق الدقيق الذى حرص عليه جيمس فى رواياته الأخيرة فإن هذه تعد النقطة المحورية فى الكتاب. فالقصة مستمرة فى التقدم باطراد ، وفى النقطة التى يقوم فيها السفير بمهمة عكسية لتلك التى جاء من أجلها – تبدأ المسز نيوسام من « مكتبها الأجنبى » فى ووليت فى الإحساس بالقلق والاضطراب من جراء خطاباته ، فتقوم باستدعائه . وعلى الفور تشرع فى إرسال طاقم جديد من الرسل يضم أخت تشاد العدوانية . ويعالج النصف الأخير من الكتاب « التعليم » المستمر الذى يمر به ستريذر والمهمة التى يقوم بها السفراء الجدد .

ويتكلم جيمس عن كل جزء فى روايته كما لو كان « يشبه ميدالية ضخمة معلقة وسط دستة من نوعها على الحائط لكى تعطى تأثيراً يثير الارتياح العظيم فى النفس » وسواء كنا نفكر فى مثل هذه الميداليات أو فى صف من الأعمدة ، فإن التأثير الذى تمارسه علينا من النوع الكلاسيكى : فالكتاب مقسم إلى اثنى عشر جزءاً ، وفى الجزء الخامس والحادى عشر أى فى الجزء الذى قبل نهاية النصف الأول والجزء الذى قبل خاتمة النصف الأخير – يصل جمس إلى منظر بمثابة قمة للأحداث . وتمثل القمتان أعلى النقاط فى تعليم ستريذر الذى يتلقاه فى منتصف عمره : تبرز القمة الأولى فى حديقة على الضفة الغربية فى يوم جميل من أيام أواخر الربيع . إنها حديقة جلوريانى الفنان . وفى هذه الأنحاء يشعر ستريذر فجأة بالانطلاق من إسار الحياة الجافة الخانقة فى ووليت . والحديقة التى يضعها جيمس فى اعتباره هى حديقة المصور

الأمريكى ويسلر فى شارع الجامعة .

وهناك ملاحظة يلقيها فنان شاب تكون بمثابة الدافع لحديث طويل يلقيه ستريذر ويحتوى فى طياته فلسفة الكتاب : يسكب ستريذر كل مكنوناته فى مونولوج يأخذ بمجامع نفسه . يقول : « عش بكل ما تستطيع من قوة ، فإن من الخطأ ألا تفعل ذلك ! ولا يهم ماذا تفعل بصفة خاصة طالما أن لك حياتك ؟ وإذا كنت لا تملك هذه « الماذا » فأنت تملك « حياتك ! » . إن لهذا الحديث صرخة القلب العميقة ، فهى تصدر مباشرة عن القلب : فى منتصف العمر يشعر ستريذر أن أشياء كثيرة فاتته ، ورحلت بعيدا عنه ؛ وينظر إلى الخلف فيرى فرصه الضائعة .

وبالطبع فإن الحياة بكل ما يستطيع الإنسان من قوة لا تعنى بالنسبة لجيمس نوعاً من الفلسفة الأبيقورية ، فإن مبدأ « عش يومك » ليس مثيراً بما فيه الكفاية . إنها مسألة الحياة فى ظل الإدراك والوعى ووضوح الرؤية والإحساس بما يحيط بالإنسان ، واستيعاب علاقته بالآخرين .

وفى مرحلة متأخرة من الكتاب نجد أن جملة « عش بكل ما تستطيع من قوة » قد تحول صداها إلى « فلتقع عيناك على كل ما تستطيع أن تراه ! » هكذا تعادلت الحياة والرؤية . ويقول جيمس : إن الحياة توجد فقط عندما ندركها ، وبدون هذا الإدراك فنحن لسنا سوى عربات تدفعها الغريزة والنبض !

وعلى أية حال فإن هذا مجرد مقدمة للمضمون ذى الدلالة فى هذه الرواية ويصل المرء إلى الحد الذى يستطيع أن يقول عنده : إن جيمس كتب هذه الرواية من أجل هذا المضمون فقط . تلك هى النقطة التى لا تصبح فيها « السفراء » ببساطة مجرد كوميديا لطيفة عن السلوك والآداب الدولية ، وعن التوازن بين إقليمية ووليت وعالمية باريس . هنا نجد الطبيعة « الفلسفية » للكتاب فبعد صيحة ستريذر بأننا يجب أن نعيش بكل ما نستطيع من قوة – يستمر فى القول بأن الحياة قالب قابل للتشكيل يستخدمه الطاهى لعمل الجيلى أو البودنج ، كذلك يتشكل وعى كل إنسان فى مرحلة مبكرة من حياته ، « ويتقولب » إذا استخدمنا التعبير الحديث ، وبمجرد أن يأخذ الجيلى شكله المعروف وكذلك البودنج فليس هناك ثمة تغيير ممكن لهذا الشكل ! إننا إنما هو ما نحن عليه ! يقول ستريذر : إن الإنسان يجب « أن يعيش فى أرق وألطف صورة يمكن أن يصنعها » .

فى هذا الإطار تبدو البدايات المبكرة لوجودية سارتر وذلك قبل مجىء سارتر بنصف قرن .

فإذا أخذ الجيلى شكله فإنه من ثم يوجد ، وتتمثل القضية عندئذ فيما يفعله الإنسان بهذا الوجود . والإجابة التى يقدمها جيمس عن هذا تبدو غريبة : فإذا لم يكن الإنسان حرًّا ، وإذا كان يعيش فى عالم حتمى المصير وله وجود سبق أن تقرر – فإن ستريذر يقول : إن الإنسان مازال يملك « وهم الحرية » . وهذا يجعل الحياة محتملة ومثيرة وممكنة عندما تتيح لنا فرصة الانفتاح على التجربة وعلى العالم .

إن وجودية هنرى جيمس المهذبة تتمثل فى هذه النقاط الإيجابية . ربما يشعر ستريذر بالتعس لأنه لم يعش حياته على أساس هذا الوهم ، لكنه فى الواقع عاش حياة محدودة فى مدينة أمريكية من مدن الأقاليم ، أما تجربته الباريسية فقد أثبتت له أن الإنسان يستطيع أن يعيش بمطلق حريته طالما أنه يشعر بهذا ، وأنه من الممكن امتلاك هذا الإحساس بالحرية حتى لو وصف بأنه وهمى بمقاييس الواقع .

ويستخدم جيمس كل إمكانات الأسلوب وسحر التصوير ، لكى يجعلنا ندرك الوعى المتزايد عند ستريذر ، والأسلوب الذى تخلص به الأمريكى من قيود الماضى فى أثناء ربيع وصيف هذا القرن الجديد فى باريس . إنه لا يحقق نجاحاً تاما ، فهو يعرف أن هذا التغيير ليس أساساً فقط ، بل ليس مفتعلاً أيضاً ؛ لأن هناك حالة جديدة من الإحساس بنوع الحرية التى يمتلكها ويفهمها ؛ كما أنه غير علاقته بالمسز نيوسام إلى حد ما . إنه يبحث عن الحرية ويستطيع حقا أن يسمح لضميره ليكون مرشداً له .

فى مطالع الكتاب ينظر ستريذر باستمرار إلى ساعته ، ويربت على جيب معطفه ليتيقن أن حافظة نقوده فى مكانها ! وكان القلق يدفعه إلى أن يعد الساعات وأن يربط إيقاع حياته بدقات الساعة . وقد قال فى حديثه العظيم فى حديقة جلوريانى : إن القطار قد فاته ! وبعد ذلك بفترة طويلة فى الكتاب نجده يركب القطار حرفيا ، فهو يذهب إلى محطة باريس ويُقلُّه أحد قُطُر الضواحى عشوائيا . فهو لا يريد أن يذهب إلى مكان محدد بالذات ، لأن رحلته الجديدة لن تخضع للقياس والتخطيط والحساب . إنه يريد أن يتنقل ببساطة وسط الريف الفرنسى ، فقد رأى ذات مرة فى متحف الفن بشارع تريمونت بمدينة بوسطون ( لوحة ) لمصور فرنسى مغمور تخصص فى رسم المناظر الطبيعية ويدعى لامبنيت . كان يحب اللون الأخضر المعدنى فى الصورة ، وهو الآن القطار يُقِله إلى حيث المناظر الريفية الفرنسية غير باحث عن شىء إلا عن هذه الدرجة نفسها من الأخضر .

وهذا بالنسبة لستريذر استعراض للتلقائية لم يكن ليقدر عليه فى الجزء الأول من الكتاب ويروى جيمس القصة كما لو كان لديه إحساس بأن كاميرا التليفزيون ستخترع ! وقد منحنا إحساسه بالمرئيات صورة لامبنيت ، وعندما تتحرك الكاميرا فى اتجاه الصورة التى يبحث عنها ستريذر تلتقط جدولا من المياه ، والخضرة الكثيفة ، وقمة منارة الكنيسة . وبمجرد نزوله من القطار فإن ستريذر يتجه مباشرة إلى « داخل » الصورة التى بحث عنها :

« إن الإطار المستطيل اللامع الذى ينتهى عند خطوطه المغلقة يحتوى أشجار السنديان والصفصاف وأعواد الغاب والنهر . إنه نهر لا يعرف ولا يريد أن يعرف اسمه ، فالكل كان تكويناً واحداً باعثاً للسعادة . وفى الوسط كانت السماء فضية فستقية لامعة ، والقرية التى على اليسار بيضاء فى حين بدت الكنيسة التى على اليمين رمادية . كان هناك كل شىء ، باختصار كان هناك كل ما أراده ، إنه كان شارع تريمونت ، كانت فرنسا ، وكان لامبنيت وعلاوة على ذلك كان يجول بحرية فى وسطه » .

لقد اكتشف ستريذر نوعاً مثيراً من الحرية ، إنها الحرية التى حررته فى المقام الأول من جدول المواعيد ، والرحلة المقررة ، والمكان المخصص ، وحتى من أسماء الأماكن ، « إنه نهر لا يعرف ولا يريد أن يعرف اسمه » ، فهو يبحث عن حرية « أن يكون ، وأن يشعر ، وأن يرى » أشجار السنديان والصفصاف الفضية والفستقية . لقد هرب من صرامة ووليت وحقق وهمه فى الحرية ، هذا الوهم الذى يحتوى فى داخله إحساسا حقيقيا جداً بالحرية الفعلية . ونحن نجد فى هذه المغامرة الشخصية التى يقوم بها أمريكى برىء ساذج بلغ منتصف العمر– نجد بريئاً ساذجاً يبحث عن ذاته .

وكان لليوم الذى قضاه ستريذر فى الريف قمته الخاصة . كانت بدايته أسعد من نهايته ، سار الأمريكى لبضع ساعات وسط المناظر الريفية وعندما أوشكت فترة ما بعد الظهيرة أن ترحل وجد حانة ريفية بسيطة .

كان ما يزال سادراً فى حالة الانطلاق الحر وعدم المسئولية عندما طلب إعداد غذاء له . وفى أثناء إعداده يشق طريقه إلى حافة النهر الذى عليه الحانة ، وينظر إلى الشفق الذى يتجمع فى هدوء . وهو منظر كان يمكن مانيه أن يرسمه : قارب عند المنحنى قبع فيه شاب وسيدة ذات مظلة وردية ، لكن الفن يتحول إلى واقع ، فإذ بالشاب هو ( تشاد ) مرتدياً قميصه بلا جاكتة أو معطف ، والسيدة هى مدام دى فايونيه التى ارتدت ملابس غير رسمية . وعندما يريان

ستريذر ينضمان إليه فى تناول الغذاء ، لكنه أصبح من الواضح الآن بالنسبة له ما كان يرفض تصديقه ببساطة وما كان يمكن أى إنسان أن يخبره به وهو أن مدام دى فايونيه ليست سوى عشيقة تشاد !

لقد كانت الفكرة التى كونتها ووليت بأسلوبها الفج الساذج فكرة صحيحة . وأدرك ستريذر أنه كان ساذجاً غرًّا بأكثر مما يتصور أحد ! فحياته فى عالم مصنوع من العلاقات الرقيقة والفوارق الدقيقة والحساسة جعلته يفشل فى الانتباه إلى الحقيقة المادية أو الجسدية ، لكننا فى الحال ندرك أنه استوعب القيم الإنسانية بأسلوب أفضل من ووليت . إنه يشعر بتعس خاص لفشله فى أن يرى تشاد على حقيقته ! لقد أسبغ على الشاب صفات أرق وأرق مما يمتلك حقيقة . وعندما يفحص كل الأدلة والشواهد التى توافرت لديه فإنه يفهم أن تشاد فى النهاية هو ابن حقيق للمسز نيوسام .

لقد سئم مدام دى فايونيه ، وكانت له طريقة خاصة يتجنب بها المسئوليات ، ويبدو عليه العزم التام للعودة إلى ووليت . وفى الواقع كان مستعدا لكى يحتضن عالم الدعاية التجارية . وذلك العالم الجديد الشجاع ، وأن يطور مشروعات الأسرة وأعمالها . وكان على ستريذر أن يصارح نفسه بأنه أسبغ على تشاد رومانسية أكثر مما يحتمل الموقف . فهو يرى الآن الحزن الذى يعتمل فى داخل مدام دى فايونيه .

ولا شك أننا ندرك ما يحاول جيمس أن يقوله عن التجربة الأوربيـة التى يمر بها الأمريكيون ذوو الحساسية المرهفة فى رواياته : هناك إغراء الفن والثقافة والعالم المرئى والنماذج الإنسانية والآداب الأجنبية ، وهناك تهذيب العلاقات الشخصية ، وهناك قضية المتعة والمسئولية ؛ كما أن هناك إغراء الحضارة ممثلة فى أساليب الحياة الراسخة ، والطقوس التى يبتكرها ويحتفظ بأسرارها المجتمع المتحضر . إنها كلها قد صممت لكى تسمح للأفراد بممارسة فرديتهم . وهذا ما ترفض ووليت أنه تفعله . وعلى أية حال فقد عانى ستريذر من هذه المشكلة . فهو لا يستطيع أن يتحول إلى أوربى محض . إنه يأخذ أوربا بجدية أكثر من اللازم فهو ليس متناغماً تماماً مع ميلها إلى الاسترخاء والدعة . فمازال هناك شىء مضطرم داخل كيانه . هكذا كانت الحال معه دائماً . وبطريقة ما فإن الأمريكيين يأخذون أوربا على محمل مطلق من الجدية أو أنهم ينظرون إليها على أنها مجرد ملعب للاستمتاع بالوقت ؛ كما نجد فى الرواية التى كتبها جيم بوكوك . حتى جيمس نفسه نجد نظرته إلى أوربا تتميز بالنشاط والحيوية

والجدية التى تكاد تطارده بطريقة ما .

لقد ظلت بالنسبة له أسطورة حياته العظيمة ، إنها قضية عالمين بكل الارتباطات والصراعات والقيم المختلفة التى بينهما . إن « السفراء » هى قصة ساحلى البحر ، هى كوميديا أخلاقية عن الروح المحلية والروح العالمية . أما من ناحية مفاهيمها وأبعادها فإنها تعد واحدة من أعظم الروايات السيكلوجية الأولى فى قرننا هذا .

ماذا يتبقى لدينا عندما نضع هذه الرواية جانباً ؟ على كل حال نرى ستريذر فى جولاته المتأنية عبر باريس وقد بدت مخايل الاسترخاء عليه وإن كان مشدوداً بعض الشىء . فى أول الأمر كان يستمتع بجمال المدينة لكن فى حدود الوعى الذى تربى فى نيوإنجلاند ، وبعد ذلك يتسع وعيه أكثر . ونحن ندرك دلالة ذكريات شبابه ، والروايات ذات اللون الذى يحاكى اصفرار الليمون والتى اشتراها منذ أمد بعيد ، والآن ينهمك فى شراء ثمانين مجلداً – باللونين الأحمر والذهبى – بما فيها الأعمال الكاملة لفيكتور هوجو . كما نتذكر أيضاً لقاءه مع مدام دى فايونيه فى سكون كنيسة نوتردام الرطب ، كان ستريذر يتسكع هناك بأسلوب لا يمت للجو الروحى بصلة فى حين جلست هى فى تأمل وصلاة ، ثم تجربته فى اصطحابها لتناول الغذاء على رصيف الميناء ، لقد كان غذاء لا ينسى .

وهناك فكرة مثيرة ومسلية تقول : إن شخصيات جيمس لا تفعل أى فعل مادى كالأكل مثلاً ، لكن المرء يتذكر « البيض الأومليت بالطماطم » الذى طلبه ستريذر ومدام دى فايونيه فى المطعم الذى على ضفاف السين ، وزجاجة الشابليه ذات الجراب القش الملون والتى تجرعاها عن آخرها ، والأسلوب الذى تتحرك به عينا مدام دى فايونيه هنا وهناك فى أثناء الحديث .

وربما كنا نتذكر ستريذر بحدة أكثر فى نهاية يومه الحر المنطلق فى الريف . لقد وجد ( لوحة ) لامبنيت التى كان يبحث عنها ، وسار عبر إطارها المغلق ، ووجد لونه الأخضر المعدنى المفضل . لقد اكتشف الحرية وأيضا اكتشف الشجن – شجن مدام دى فايونيه التى لم تعد السيدة ذات الأنفة والكبرياء ، بل مجرد امرأة عاشقة مثل أية امرأة أخرى عليها أن تواجه الانفصال عن حبيبها . وبالنسبة للعالم الحديث المتحذلق فإن من الصعب عليه فهم براءة ستريذر وسذاجته . وعلى بعض منا أن يؤمن بوجود أمثال هؤلاء السذج ؛ ويبدو أن جيمس لم يكن يفكر فقط فى إيمرسون ، بل أيضاً فى صديقه وليم دين هاولز الروائى الذى كانت ملاحظته « عش حياتك بكل ما تستطيع من قوة ! » التى أبداها ذات يوم لكاتب شاب فى

حديقة ويسلر بمثابة الشعلة الأصلية التى أضاءت خيال جيمس وأدت به إلى كتابة هذه الرواية .

عندما نقول هذا عن « السفراء » ، وعندما نتكلم عن براءة ستريذر ودهشته المتأصلة بصفته رجلا بلغ منتصف العمر فإننا لا نقلل من اهتمامنا بالرواية : فهناك فن خلق الشخصيات وتحريكها كما يحدث فى مسرح العرائس ، إذ يخلقها جيمس كما لو كانت عرائس تتحرك فوق المسرح : فمثلا نجد ماريا جوسترى التى أصبحت كاتمة أسرار ستريذر تقوم بتجاذب أطراف الحديث معه ومساعدته لكى يخرج من مغامرته التى لم تزد عن عنصر الرؤية والتأمل ، كما تساعده فى محاولته لكى يرى جوهر التجربة ذاته . إنها نوع من الكورس ، تسأل الأسئلة المناسبة وتستنتج المعلومات الصحيحة . وهى أداة مميزة من أدوات جيمس يصممها لمساعدته فى منح القارئ المعلومات الضرورية التى ربما لن يحصل عليها من أى مصدر آخر . كما تضيف ماريا « وجهة نظر » إضافية ، وزاوية جديدة للرؤية ، وفى النهاية فإن جيمس كان سعيداً بها ، وأطلق عليها لقب « صديق القارئ » ، لكنه أحالها من مجرد أداة إلى شخصية حية ذات وظيفة محددة وكان فخوراً بذلك .

وتمثل الشخصيات الأخرى التناقضات المتوازية فى التجربة الأمريكية الأوربية مدام دى فايونيه ومسز نيوسام أى الأم الفرنسية والأم الأمريكية : مدام دى فايونيه قامت بتربية ابنتها كشابة ، وأعدتها لكى تواجه العالم طبقا للتقاليد.أما أبناء المسز نيوسام فهم أقل استعداداً : إن تشاد شخص خشن إلى أن تهذبه مدام دى فايونيه ، وأخته سارة شخصية جلفة لا تمت إلى الحساسية والرقة بصلة ! ومسز نيوسام فى ووليت تشغل نفسها بالأعمال « المفيدة » وبما تسميه « بالتثقيف » ، فى حين أن مدام دى فايونيه فى باريس مهتمة بالعلاقات الشخصية . أما جلوريانى الفنان الأوربى فهو صورة مجسمة للنجاح وللاستمتاع به ؛ فى حين أن وايمارش الأمريكى الناجح مصاب بعسر هضم وله نظرة كئيبة إلى العالم . وقد غيرت أوربا ستريذر تغييراً عميقاً ، فى حين أن تشاد تغير من الظاهر فقط . إن أوربا بالنسبة لجيمس هى المحك والاختبار ، ومن الواضح أن الرواية تميل بثقلها فى مصلحة العالم القديم . هكذا لا نجد فى الكتاب شخصية أوربية مثل سارة بوكوك التى لا يمكن أن يزيد أى شخص آخر عليها فى إثارة الضيق والكآبة !

والأمريكيون الذين طبعتهم أوربا بطابعها الخاص فى روايات جيمس شخصيات مثيرة

ومسلية ، ودبت فيها الحياة وأنضجتها تجربة الحياة بعيداً عن الوطن . وعلى أية حال فليس هناك أوربيون تأثروا بالطابع الأمريكى ، فهذا التأثر لم يكن بعد قد بلغ أحداً . ويمكننا التيقن من أنه إذا كانت هذه الرواية قد كتبت اليوم فإن جيمس كان سيأخذ فى اعتباره بالطبع التأثير الأمريكى على أوربا . فقد كتب عندما كان تبادل التأثير لا يزال فى اتجاه واحد ، وبإثارته الأسئلة بين أمريكا وأوربا كان يلقى على نفسه الأسئلة التى مازلنا نحاول الإجابة عنها فى عصرنا هذا : ما القيم الأوربية التى يتحتم علينا المحافظة عليها ؟ وما القيم الأمريكية ؟ وماذا كانت نتيجة الإخصاب المتبادل ؟ إن نهاية هذا الفصل الضخم من التاريخ لم تكتب بعد !

ومنذ زمن بعيد وصف إ . م . فورستر « السفراء » ككتاب خُلق لكى يكون « نموذجاً » يتم صب الحياة داخله ! ورأينا كيف قص جيمس قصته فى قسمين ، كل منهما مقسم إلى ستة أجزاء : أى أن الرواية كلها اثنا عشر جزءاً . وقد وقف فورستر وراء القاعدة التى تقول : إن الروايات غير قادرة على إنجاز « التطور الفنى الضخم الذى تنهض به نفسه الدراما » ويقول إن العنصر الإنسانى بكل ذيوله وضخامة المضمون يعوقان الرواية عن القيام بهذا .

«وبالنسبة لمعظم القراء فإن الإثارة التى يحدثها النموذج ليست بالحدة الكافية التى تبرر التضحية من أجله ، وإذا كانت هذه العناصر قد صبت فى قالب جميل ، فإنها عملية لا تستحق القيام بها » ذلك هو حكم مؤلف « رحلة إلى الهند » ، وقد ردد صداه فيما بعد ف . ر . ليفيز . لكن فى الفصل نفسه فى كتابه « ملامح الرواية » ناقش السيد فورستر فكرة « الإيقاع » فى الرواية ، وأظهر كيف أن « الجملة القصيرة » فى بروست ، والتركيب الموسيقى السريع الذى كتبه فينتويل كانا من التأثير الحاسم أكثر من أى شىء آخر؟ «لكى يجعلنا نشعر أننا نعيش فى عالم متناغم » وقال : إن وظيفة الإيقاع فى الرواية « لم يكن الإيقاع هناك طوال الوقت كنموذج أو نمط ، ولكن من خلال تشكله وصياغته لكى يملأنا بالدهشة والجدة والأمل » .

إنه لمن المذهل أن نكتشف كيف لفنان عظيم أن يمتلك القدرة على أن يرى شيئاً فى رواية له لا يمكن أن يستشفه آخر ؟ إنى أوافق على أن « السفراء » نموذج ، وأن مناظرها « صممت » كما لو كانت مسرحية من تأليف راسين . لكن جيمس كان كاتباً محترفاً بما فيه الكفاية حتى يدرك تأثير ما يقوله فورستر ، فإن هذه النماذج تستطيع تشكيل الحياة إذا امتزجت بالإيقاع والصور والرموز التى تعاود الظهور من حين لآخر .

إن التجانس الذى تتميز به رواية جيمس يكمن فى الوحدة المتفردة التى تتجسد فى الأدوات الرمزية البسيطة مثل : تكرار إشارات الوقت ، والقطر ، والقوارب ، وكما هى الحال عندما فات ستريذر القطار ، وعندما كانت مدام دى فايونيه تقبع فى قارب فوق موج متقلب ، وكانت تحب أن يقفز ستريذر إليه حتى يساعدها فى جعله مستقرا ؛ أو الإيقاع الفعلى المتمثل فى وقوف ستريذر فى بداية الكتاب فى حى بوليفار مالشيرب ناظراً إلى شرفة تشاد متعجباً مما تأتى به الأيام ، ثم عودته إلى المكان نفسه فى نهاية الكتاب لكى يتذكر كيف كان مشبعاً بالأمل والبراءة ؟ وكيف كان غير مدرك للتجربة التى سيخوضها ؟.

والآن انتهى كل شىء كما تنتهى الأشياء فى هذه الحياة : فقد عاش ورأى وتعلم . وإعادة قراءة « السفراء » يعنى اكتشاف فنها ومضمونها الإنسانى الرقيق المهذب ، ويعنى أيضاً فهمنا للسبب الذى يجعل الكثيرين يعتبرونها تحفة أصيلة من نتاج الخيال الأمريكى المتحضر .